الحرب على الإرهاب:

التقنية والإيتيقا في خدمة العدوان

فريد العليبي*

لم تنفكّ الفلسفةُ تسائل الراهنَ الذي تحيا فيه وتتشكّل، حتى اعتُبِرَ الفلاسفةُ أبناءَ عصرهم بامتياز. ونصُّنا هذا سيتركّز على مساءلة الراهن في بعدٍ من أكثر أبعاده التهابًا، ونعني الحربَ المستعرةَ في بقاع مختلفة من عالمنا تحت عنوان مثير: «القضاء على الإرهاب.» أيْ أنّ مطلبنا هو الالتفاتُ ناحيةَ مكاننا وزماننا؛ فـ«مَنْ أسرَف في التطلّع إلى ما كان يَحْدث في العصور الخالية ظلّ في العادة شديدَ الجهل بما يتمّ في زمانه.»[1] وإذا كانت الحربُ في نسختها الراهنة تعتمد أشدَّ التقنيات تعقيداً وأكثرَ الأسلحة تطوّرًا، فإنّ مساءلتَها الفلسفية لا يُمْكن إلاّ أن تكون معنيّةً بتحليل بُعدها التقني، حيث يجري الحديثُ عن عمليات عسكرية «دقيقة ونظيفة» وأسلحة «ذكيّة لا تُلْحق الأذى إلا بالأشرار المارقين!»

كما أنّ الحديث عن هؤلاء الأشرار، واعتبارِ القضاء عليهم الغائيّةَ المحرِّكةَ لهذه الحرب، يضعنا بدوره أمام بعدٍ آخرَ لا يقلّ أهميةً، يتّصل بإيتيقا الحرب الدائرة حاليّاً. فإذا كانت الأخلاقُ هي مجموعَ القيم المعتَمَدةِ في عصرٍ ما ومجتمعٍ ما، فإنّ الإيتيقا بما تَحْمله من شحنةٍ فلسفيةٍ وبُعدٍ تنظيريّ تنشدّ إلى مقصدٍ محددٍ وهو الحُكْمُ على الأفعال وأنماط السلوك لكي نَعْرف إنْ كانت خيِّرة أمْ شريرة؛ بل إنّها تتعدّى ذلك إلى الحثّ على اتّباع سلوكٍ أخلاقيٍّ ما ونبذِ سلوكٍ أخلاقيٍّ آخر. وإذا كانت الأخلاقُ تتوجّه إلى الشخصية الفردية، فإنّ الإيتيقا تتوجّه إلى الشخصية العامّة في الأساس، وهي جزءٌ من البنيان العامّ الذي تمثّله الفلسفةُ، وتَهْدف إلى الكشف عن الغاية من الحياة الإنسانية وتحديدِ الوسائلِ الواجب اتّباعُها في سبيل ذلك.

وإذا كانت الفلسفةُ فلسفاتٍ، منها ما يَجْلب للناس الموتَ ومنها ما يَجْلب لهم الحياةَ، كما بيّن پول نيزان،[2] فإنّ الإيتيقا أيضاً إيتيقاتٌ متباينةٌ بل متصارعة. فإذا كانت الإيتيقا الإيجابية متمركزةً حول مطلب الحرية الإنسانية، فإنّ الإيتيقا السلبيةَ تَطْلب الحريةَ للبعض على حساب البعض الآخر. أيْ أنّ هناك «إيتيقا أرستقراطية» بحسب عبارة لوكاتش[3] تتوجّه إلى الخاصّة؛ وإيتيقا شعبيةً تتوجّه إلى عامّة الناس لكي تقول لهم: إنّ تحرُّرَكم لن يكون إلاّ من صنعكم أنتم، وإنّ سعادتَكم هدفٌ يُمْكن تحقيقُه، وما عليكم إلاّ حثُّ الخطى في سبيل الظَّفَر به.

والرهان الفلسفي الذي تبتغيه مساءلةُ هذه المشكلات هو الدفعُ باتجاه فتح العين على الدمار الذي نحياه، تمهيداً لمواجهته مواجهةً شاملةً. فللفلسفة أن تقولَ كلمتَها بصوتٍ عالٍ، وأن تفكِّر في الراهن تحليلاً ونقداً، وأن تُجْبِرَ مَنْ حولَها على التفكير في ما لم يفكِّروا فيه بعدُ. وكلُّ ذلك في لحظةٍ تاريخيةٍ موسومةٍ في الأغلب بتتفيه الثقافة، واستقالةِ المثقفين، أو انخراطِهم في السائد والتماهي مع نُظُمه ومؤسساته.

---

* - أستاذ الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، مسؤول الإعلام بالجمعية التونسية للدراسات الفلسفية.

١ - رينه ديكارت، **المنهج لإحكام قيادة العقل**، ترجمة ومراجعة فوّاز الملاح ومحمود الصالح (دمشق: دار النشر غير مذكورة، ط ١، ١٩٨٨)، ص ٢٦.

٢ - Paul Nizan, **Les chiens de garde** (Paris: Maspiro, 1982), p. 10.

٣ - جورج لوكاتش، **محاورات مع جورج لوكاتش** (بيروت: دار الطليعة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨)، ص ٩٩.

كانط يرفض الحرب بشكلٍ مطلق، ونيتشه يُناصرها لأنها تحافظ على «مواهب عِرْق السادة»

أطروحاتٌ فلسفيةٌ ثلاث حول الحرب

كان للفلاسفة مواقفُ متباينةٌ بشأن الحرب: بين ممتدحٍ لها ومعترض عليها بشكل مطلق من جهة، ومتّخذٍ مواقفَ منها على اعتبار الحالات المخصوصة التي تقع فيها من جهة أخرى. وللتمثيل لهذه المواقف سنورد بعضَ المرجعيات الفلسفية. وسنقتصر على استحضار كانط ونيتشه بالنسبة إلى الموقف الأول، وابن رشد والماركسية بالنسبة إلى الموقف الثاني.

يردّ كانط الحربَ إلى نزوعٍ غريزيّ؛ فهي «تبدو متجذّرةً في الطبيعة البشرية، بل إنّها تبدو كشيءٍ نبيلٍ يميل إليه الإنسانُ حبّاً في المجد.»(١) ولا يعني ذلك أنّ كانط يبرّرها، بل هو لا يخفي معارضتَه لها بشكل مطلق، موجِّهًا نقدَه إلى الفلاسفة الذين مَجّدوها «كما لو كانت ميزةً إنسانيةً، متغافلين عن هذه الجملة التي نَطَقَ بها إغريقيٌّ: إنّ الحرب سيئةٌ من حيث كونُها تَصْنَع من الأشرار أكثرَ ممّا تُلغي.»(٢)

والوجه الآخر لهذا الموقف نَعْثر عليه لدى نيتشه الذي عَبّر عن رأي مناصرٍ للحرب: فهي الكفيلةُ بصقل مواهبِ عِرْقِ السادة، والمحافظةِ عليها، والحيلولةِ دون انحطاطها، ومن ثمّة التعجيلِ في ظهور الإنسان الأرقى. إنّ الصراع والقتال والمغامرة كلَّها، في رأي نيتشه، أمورٌ لا غنى عنها لإدراك ذلك الهدف؛ فـ«الأحكامُ القيميّةُ لدى الأرستقراطية المقاتلة تعتمد على بنيةٍ جسميةٍ قوية، وعلى صحةٍ عامرة، دون نسيان الشرط اللازم لتعهُّدِ هذا النشاط المتدفق، ونعني الحربَ والمغامرة.»(٣) ويذهب إلى أنّ القويَّ لا ينبغي أن يُلامَ كلّما عَمَدَ إلى وضع «إرادةِ الاكتساح والإخضاع» لديه موضعَ التطبيق؛ فذلك ما تقتضيه طبيعةُ الأشياءِ ذاتُها. ولم يتردّدْ نيتشه في توجيه نقده العنيف إلى أطروحات المسالمة والنزعات الإنسانية المفرطة في إنسانيتها، معتبرًا إيّاها «عقيدةً جامدةً... تؤكّد أنّ من الجائز للقويّ أن يصبح ضعيفًا، وللطيرِ الجارحِ أن يتحوّل إلى حَمَل!»(٤)

وفي المقابل نجد لدى ابن رشد موقفًا مغايرًا: فالحرب، عنده، لازمةٌ لردع المعتدين وإجبار المدنِ الضالّةِ على السير في طريق الفضيلة والحكمة. غير أنّها ليست اختياريةً وإنّما اضطرارية، وعندما تنتفي أسبابُها الموضوعيةُ فإنّ اللجوء إلى السلام يَفْرض ذاتَه لا محالة، إذ «من الصائب القولُ إنّه أحيانًا يكون السلامُ مرغوبًا أكثرَ من الحرب.»(٥)

وفي الاتجاه نفسه ترى الماركسيةُ أنّ الحرب ليست شرّاً مطلقًا ولا خيرًا مطلقًا، ولذلك يَنْبغي أن يُتّخذ الرأيُ بخصوصها في كلّ حالة على حِدة: فحروبُ المضطهَدين ضدّ مضطهِديهم حروبٌ عادلةٌ تنبغي مناصرتُها والانخراطُ فيها؛ أما الحروب التي يشنّها الغزاةُ بهدف الاستعمار والاستغلال فينبغي فضحُ طبيعتها ومقاومتها. أيْ أنّه سواءٌ كان الاضطهادُ داخليّاً أو خارجيّاً، فإنّ الحرب التي يشنّها المضطهَدون لأجل تحرّرهم هي حربٌ مشروعة: ففي حال الغزو **الخارجي** «فإنّ كل أمة تستسلم لأنّ جيوشَها لم تستطع المقاومةَ لهي أمةٌ جبناءَ تستحقّ كلَّ احتقار.»(٦) ذلك لأنّ واجب الأمة التي تَخْضع للغزو أن تَنْهض لمقاومة الغزاة من خلال اللجوء إلى حرب العطابات.(٧) أما بالنسبة إلى الصراع الواقع **داخل** البلد الواحد بين الطبقات المتناحرة، فإنّ الماركسية تَعْتبر الثورةَ المسلحةَ التي يقوم بها المضطهَدون أمرًا مبرّرًا بل لازمًا:

---

١ ـ ٢ ـ Immanuel Kant, **Projet de paix perpétuelle**, trad: Jules Barni, revue par A. Lagard (Paris: Hatier, 1988), p 48, 49.

٣ ـ ٤ ـ فريدريك نيتشه، **أصل الأخلاق وفصلها**، ترجمة حسن قبيسي (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط ٢، ١٩٨٣)، ص ٢٩.

٥ ـ ابن رشد، **الشرح الأوسط لكتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس**، وَرَدَ ضمن:
Louis Lazar, "L'éducation politique selon Ibn Roshd," in : **Studia Islamica LII** (Paris: Maisonneuve, 1980), p 141.

٦ ـ ٧ ـ فريدريك أنجلس، «حول حرب العصابات،» ضمن كتاب: **الماركسية وحرب العصابات**، ترجمة ماهر الكيالي وإبراهيم العابد (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٧٨)، ص ١٤.

فـ «البرولتاريا تؤسِّس سلطتَها بعد القضاء على البرجوازية بالشدّة والعنف.»[١]

وكما هو جليّ، فإنّ الحدود الفاصلة بين هذه الآراء تجد منبتَها في أطروحاتٍ ثلاث. أوّلها أنّ الحرب سيئة في كلّ الظروف والحالات، وأنّ البديل عنها هو السِّلْم الأبدي. والثانية أنّها شرطٌ لازمٌ لترقّي الكائن الإنساني وصولاً إلى الإنسان الأعلى. والثالثة أنّ طبيعتها تتحدّد بالمقصد الذي ترومه وبالقوى المنخرطة فيها.

دلالة الحرب على الإرهاب

إذا «لم تكن الحربُ عملاً سياسيّاً فحسب بل أداةٌ سياسيةٌ حقيقيةٌ واستمرارٌ للعلاقات السياسية وتحقيقٌ لهذه العلاقات بوسائل أخرى،» بحسب التعريف الشهير لكلاوزفيتش،[٢] فإنّ الوقوف على الجانب السياسي شديدُ الأهمية. ومن ثمّة فإنّ الإحالة على وقائعَ سياسيةٍ مباشرةٍ تبدو في هذه الحال أمرًا لا مناصَ منه.

وما دام الأمر يتعلّق في هذا العمل بالخوض في إشكالية الحرب والإيتيقا، فإنّ العلاقة بين السياسي والقيمي لا يُمْكن إلاّ أن تكون حاضرةً. «فإذا كانت السياسة تقول: **كونوا حذرين مثل الثعابين**، بينما تضيف الأخلاق: **كونوا بسطاءَ مثل الحَمام**،»[٣] فإنّ ما نلاحظه راهنًا في عالمنا هو أنّ الثعابين تَفْتك بأسراب الحمام في وضح النهار، وبوحشيةٍ قلَّ نظيرُها، بحيث تُطيح القوةُ الغاشمةُ بالفضائل مجتمعةً. وضمن السجلّ السياسي نلاحظ ذلك الحضورَ المتعاظمَ لمصطلح «الإرهاب،» وهو من المصطلحات التي ظلت مستعصيةً على التحديد الدقيق. وانعدامُ وجود تحديدٍ لذلك المصطلح قد لا يكون دون قصد، خاصةً من قبل الهيئات الدولية التي تَأْتمر بأوامر القوى الإمبريالية. فأنْ يظلّ التحديدُ غائبًا فذلك من شأنه أن ييسِّر لتلك القوى التلاعُبَ به في أيّ وقت، فتفصِّله على قياس كل حالة من الحالات التي تواجهها، بحيث توصَفُ أيةُ مقاومةٍ مشروعةٍ بأنّها إرهاب، ويوصَفُ الإرهابُ الفعليُّ بأنّه دفاعٌ مشروعٌ عن الذات.

واللافت أنّ مختلف القوى المتصارعة قد حرصتْ على وصم بعضها البعض بصفة «الإرهاب،» وجاءت حادثةُ ضرب برجَي التجارة ومبنى البنتاغون لكي تضفي على المصطلح بعدًا دراماتيكيّاً. وسيظل هذا المصطلحُ ملتبسًا ما دام خارج إطار التاريخ؛ ولذلك يَنْبغي تنزيلُه ضمن مكانٍ وزمانٍ محدَّدَيْن، والربطُ بينه وبين القوى المتصارعة. ففعل المقاومةِ هو ذاك الذي يَسيرُ في اتّجاه التاريخ من حيث إنّ القوى التي تمارسه تَطْلب الحريةَ والتقدمَ ـ ولكنْ ليس كيفما اتفق، بل استنادًا إلى إيتيقا تَحْترم الكائنَ الإنساني وتُجِلُّه، ولا تُلْحق الأذى إلاّ بالمجرمين والاستغلاليين. أما فعل الإرهاب فهو ذلك العملُ العنفيُّ الذي ينافي حركةَ التاريخ، ويشدُّها إلى الوراء، ويُلحق الأذى بأناسٍ أبرياء.

وإذا كان فعلُ المقاومة يستمدّ شرعيتَه في ارتباطه بنبل غاياته وسلامة وسائله، فإنّ فعل الإرهاب لا شرعية له. وإنْ كانت له مِنْ إيتيقا تُسْنده، فهي «إيتيقا» العدوان التي تصوِّر للغزاة أنّهم على الطريق الصحيح، وأنّ ضحاياهم برابرةٌ يتوجّب قتلُهم.

ورغم أنّ الإمبرياليين الأميركيين يَمْتلكون الكلمةَ العليا في ترويج الدعاوى الإيديولوجية التي تُظْهر خصومَهم في أبشع صورة، فقد بدا جليّاً لقطاع واسع من البشر أنهم يمارسون الإرهابَ المنظَّم، أيْ إرهابَ الدولة العظمى، تحت شعار «مَنْ ليس معنا فهو ضدّنا.» بل المفارقة أنّ هؤلاء الإمبرياليين هُمْ مَنْ صنَعَ ظاهرةَ الأصولية، وهُمْ مَنْ يكتوي الآن بنارها. فالإمبريالية تَصْنَع إرهابييها وتُخْرجهم من كِمّها في الوقت المناسب، ثمّ تُطْلق زعيقَها بعد ذلك مطالبةً بغزوهم وتدميرهم في عقر دارهم «حتى لا يطاولَنا شرُّهم!»

وإذا كان هناك مِنْ تفسير لمثل ذلك الصنيع فهو أنّ الإمبريالية والحرب توأمان: فهي عندما لا تجد ذريعةً مناسبةً لتفجير الحروب فإنّها تَخْتلقها من خلال إثارة الفتن؛ وعندما تندلع الحرائقُ تتظاهر بلعب دور رجل المطافئ، فترسل جنودَها على عجل، ولا تَبْرح المكانَ إلاّ مدحورةً، تُلاحِقُها لعناتُ المقهورين وزخّاتُ رصاصهم.

لقد شكر فريديريك أنجلس نابليون على ما صَنَعَتْه يداه عندما استثار بحروبه التوسّعية «حروبَ الشعوب العامة،» وحرَّكَ الشعورَ القوميَّ المعادي للغزو. واليومَ بالإمكان القولُ إنّ بوش قد فَعَلَ الأمرَ ذاتَه؛ فهو يحرّك لدى العرب والأفغان واليوغسلاف وغيرهم من الشعوب شعورًا لا يقاوَم بضرورة المقاومة. وعلى هذا النحو فإنّ الحرب الراهنة، برغم طابعها الظالم، لا تُعْوزُها بعضُ العناصر الإيجابية، إذ إنّها أيقظتْ ملايينَ البشر على الوجه البشع للإمبريالية. فبعد تفكُّكِ المعسكر الشرقي قدّمت الولاياتُ المتحدةُ الأميركية المنتصرة نفسَها على أنّها ضامنةُ الحرية والعدالة لشعوب الأرض كافةً؛ ولكنْ حين كَشفت الوقائعُ أنّ تلك الوعود ليست سوى خداع، هبّت البلدانُ التي طالها الغزوُ لمقاومة المستعمرين بقوة السلاح، وسارت الطبقاتُ المستغَلّة في البلدان الرأسمالية في مظاهرات ضمّتْ ملايينَ البشر. ومثلما بَيَّن ماركس وأنجلس أنّ الرأسمالية تُنْجب حفّاري قبرها، فإنّ الأحداث الجارية اليوم تشير إلى أنّ الإمبريالية تعفِّر وجهَها في التراب وتَغْرق في الأوحال جرّاءَ ما صنعتْه، وذلك على أيدي ضحاياها أنفسهم.

١ـ ماركس/ انجلس، **البيان الشيوعي** (موسكو: دار التقدم، بدون تاريخ)، ص ٥٥.

٢ ـ كلاوزفيتش، **في الحرب** (القاهرة: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ)، ص ٩٨.

٣ ـ Kant, op. cit., p.100.

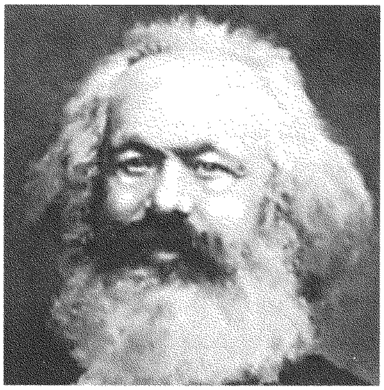

بيَّن ماركس وأنجلز أنّ الرأسمالية تُنجب حفّاري قبورها. وتبيّن أحداثُ اليوم أنّ الإمبريالية تعفّر وجهها في التراب جرّاء ما صنعتْه، وذلك على أيدي ضحاياها أنفسهم

وهكذا فإنّ أهمية هذه الحرب تكْمن في العداء الذي فَجّرتْه ضد الإمبريالية، بالنظر إلى طبيعتها الكونية. فالقيّمون عليها يَحْرصون على التأكيد أنّها تَشْمل العالمَ كلّه، ومن هنا فإنّ المواجهة قد غدت هي أيضًا أممية. وإذا كان قد تشكّلَ خلال الستينات والسبعينات من القرن الماضي وعيٌ سياسيٌّ معادٍ للاستعمار لدى مئات الملايين من الناس، على هامش الحرب في فيتنام، فإنّ ما يحدث الآن هو جنينُ وضعٍ مشابه.

لقد ألمحنا سابقًا إلى أنّه من المهمّ دومًا، قبل اتّخاذ موقف من هذه الحرب أو تلك، الوقوفُ على طبيعتها؛ فـ«المسألة الرئيسية... هي تحديدُ الأهداف التي تجري من أجلها هذه الحربُ (أو تلك) وتحديدُ الطبقات التي أعدَّتْها وقادتْها.»[١] فإذا كان الهدفُ من الحرب على الإرهاب هو السيطرةَ على ثروات الشعوب، وإذا كان مَنْ خَطَّطَ لهذه الحرب هو الولايات المتحدة الأميركية وحلفاءَها المشهودَ لهم بجرائمهم المرتكبة في حقّ الأمم المضطهَدة، فإنّ الحرب الدائرة حالياً هي حربٌ غيرُ عادلة؛ إنّها حرب رجعية تَنْبغي مقاومتُها.

وبإمكان هذه الحرب إحرازُ انتصاراتٍ موقّتة، فتدمِّر مدنًا بأكملها على رؤوس أصحابها، مثلما حَصَلَ في الفلوجة والنجف وغيرهما من مدن العراق وقُراه. غير أنّ مآلَها النهائيَّ هو الهزيمة؛ فـ«سياسةُ الدم الحديد يُمْكن أن تُحْرزَ النجاحَ موقّتًا، [غير أنّها] لا بدّ أن تُمنى بالفشل في آخر المطاف.»[٢]

التقنية في خدمة الحرب

تَسارَعَ في العقود الأخيرة نسقُ تطوير الأسلحة، وهو ما يمكن تبيُّنُه من خلال إلقاء نظرة على جيل الأسلحة الجديدة المسيَّرة ذاتياً. ويندرج ذلك ضِمْنَ ما عرفتْه التقنيةُ في مجملها من تطوّر، أيْ أنّ ما يصحّ في هذا المجال على الآلات المخصصة للحرب يصحّ على الآلات إجمالاً. فعندما نلقي نظرةً على ذلك التطور يُمْكننا رسمُ اللوحة التالية: «المعدّات البسيطة، تراكُم المعدّات، المعدّات المركّبة، تشغيل أدوات مركّبة بمحرّك يدويّ واحد بواسطة الإنسان، شبكة آلات ذات محرّك أوتوماتيكي واحد. تلك هي مسيرة الآلات.»[٣] وبهذا، فإنّ التكنولوجيا التي نتحدث عنها إنما تحيل على **مجموع** الأدوات والآلات التي يتم إنتاجُها وإعادةُ إنتاجها بهدفِ تحقيقِ مَقْصدٍ معيّن. وقد تطوّر ذلك الإنتاج، كما ذكَرْنا، من البسيط إلى المعقّد، مثلما عليه الحالُ في عصرنا حيث الآلاتُ الروبوتيةُ الذاتيةُ الحركة، والتي يتم التحكُّمُ فيها عن بعد. وهو ما ينطبق على الآلات المستعملة في الحرب، ومن هذه الزاوية أضحى دارجًا وصفُها بـ«الذكية.»

والحقّ أنّ التكنولوجيا العسكرية، سواء من حيث إنتاجها أو الغائيّة المحرّكة لها، منصهرةٌ في الفضاء الاجتماعي السياسي الذي تنشأ فيه و تتطور. إنّها نتاجٌ طبيعي للعلاقات القائمة بين الطبقات وبين الأمم؛ فقد طَوَّرت القوى المتصارعةُ دومًا أدواتِها الحربيةَ بما يناسب مصالحَها التي تمرّ في غالب الحالات عبر إخضاعِ الخصم وفرضِ الأمرِ الواقعِ عليه.

ولا ينبغي النظرُ إلى العلاقة بين الإنسان والآلة، بما في ذلك الآلةُ العسكريةُ، على نحو أحاديّ. فإذا كان من الصائب القولُ إنّ البشر قد أَنتجوا آلاتِهم بوعيٍ وإرادة، فإنّه من الصائب أيضًا القولُ إنّ تلك الآلات تستقلّ عنهم وتُخْضعهم لإرادتها، بما في ذلك المعدّاتُ العسكريةُ التي تبدو ـ وهي منتصبةٌ في القواعد والثكنات التي شُيّدتْ لاحتضانها ـ كما لو أنّها تستحثّ البشرَ على استعمالها. وبطبيعة الحال لا ينبغي البحثُ عن تفسير لهذا الأمر لدى الآلات ـ فهي خرساءُ لا تقوى على الإصغاء إلى أسئلتنا ـ وإنما لدى البشر أنفسِهم والعلاقاتِ التي أنشأوها في ما بينهم.

---

١ ـ لينين، **نصوص حول المسائل العسكرية**، ترجمة الهيثم الأيوبي (بيروت: دار الطليعة، ط ١، ١٩٧٢)، ص ٢٦٣.

٢ ـ أنجلس، «دور العنف في التاريخ،» ضمن: ماركس / أنجلس، **منتخبات في ثلاثة مجلدات**، المجلد ٣، الجزء ٢ (موسكو: دار التقدم، ١٩٨١)، ص ٢٣٣.

٣ ـ ماركس، **بؤس الفلسفة** (بيروت: دار الفارابي، الطبعة الثانية، ١٩٨١)، ص ١٢٤.

لقد كانت للأسلحة في فترات التاريخ المختلفة آثارُها السلبية؛ فقد تسبّبتْ في سقوط ملايين الضحايا، وكانت باستمرار الأدواتِ التي استعملتْها قوى التسلّط والهيمنة لفرض سطوتها. غير أنّ هذا ليس إلاّ الوجهَ الأولَ للمسألة. أما الوجه الثاني فهو أنّ الأسلحة كانت أيضًا أدواتٍ لمحاربة الاضطهاد. إنّ الأسلحة، أية أسلحة، لا قيمةَ لها، إذن، إلا في العلاقة بمَنْ يستعملها. ولكنْ، هل يعني ذلك حيادَ الأسلحة؟ للإجابة، سنجعل السؤالَ يكتسي صيغةً أعمّ بالإحالة على التقنية عامةً. فهل هي محايدة أمْ لا؟!

ليست التقنيةُ محايدةً، وإنما تُوجّهها وتَطْبعها المشاريعُ التي تضعها القوى المُشْرفةُ عليها. فوراءَ كلّ منتوج تقنيّ مشروعٌ وضَعَه هذا الطرفُ أو ذاك لتحقيق هدفٍ أو جملةٍ من الأهداف، وتلك الأطرافُ عينُها هي التي توجِّه العلمَ والعلماءَ في غالب الحالات ناحيةَ ما تروم فعلَه. وعندما نقرأ الشهادةَ التاليةَ التي أدْلى بها أحدُ العلماء الذين أسهموا في صنع القنبلة الذرية الأميركية يرتسم أمامنا ذلك التلازمُ الذي ألمحنا إليه. ففي مؤتمر «آسيا والپاسفيك من أجل السلام» المنعقد سنة ١٩٥٢، تكلّم العالمُ الأميركيُّ جون هنتون قائلاً: «لستُ بيدي أولَ قنبلة ذريّة أُلقيتْ على ناجازاكي. وإنّي لأشعرُ اليومَ بالجُرْم الذي ارتكبتُه، كما أَشْعر بالحزن لأنّي قمتُ بدور مهمّ في إعداد هذا الجرم ضدّ الإنسانية. ولكنْ كيف حَدَثَ أنّي رضيتُ القيامَ بهذه المهمة؟ ذلك لأنّي كنت أؤْمن بفلسفةِ **العلم من أجل العلم** الخاطئة.»[١]

وهكذا فإنّ المشاريع التقنية ليست منفصلةً عن المجتمع وما يعتمل داخلَه من صراعات وتناقضات. فكلّ آلة يتمّ إنتاجُها تَحْمل التاريخَ الحقيقيَّ لميلادها في ذلك القَصْد الذي لأجله تمّ صنعُها. وبالتالي فهي غيرُ مستقلّةٍ عن القوى التي أنتجتْها، خاصةً في البداية، بل امتدادٌ لحاجات تلك القوى ورغباتها. نقول «في البداية» لأنّه قد يَحْدث بعد ذلك انتقالُ تلك الآلات إلى أيْدي قوًى أخرى ذاتِ مشاريعَ وتطلُّعاتٍ مختلفة.

والمطلوب هو أن يتحول نقدُ التقنية إلى نقد المجتمع. ذلك أنّ الأمر لا يتعلّق بصراع بين الإنسان والتقنية، وإنما بصراع بين الإنسان والإنسان، وهو «صراع يتفاقم مع بروز التفاوت وتفاقمه داخل المجتمعات البشرية، بين بعضها البعض، من حيث مستوى المعرفة والثروة وتملُّك العلم والتكنولوجيا وحدود الهيمنة السياسية والاجتماعية والطبقية.»[٢] وقد يكون مفيدًا، هنا، استحضارُ كارل ماركس وهو يحلِّل ردَّ فعلِ العمّال ضد الآلات في بدايات التصنيع بقوله: «يعود تاريخُ الصراع بين الرأسمالي والعامل بالأجرة إلى أصول رأس المال الصناعي نفسها، وقد اندلع أثناء العهد المانيفاكتوري. ولكنّ الشغّيل لم يهاجِمْ وسيلةَ العمل إلا عند إدخال الآلة؛ فقد ثار ضدّ هذا الشكل الخاص من أشكال الأداة الذي يرى فيه التجسيدَ الفنيَّ [التكنيكي] لرأس المال.»[٣]

وإذا عدنا الآن إلى التقنية العسكرية والأدوات المستعملة في الحروب، لجاز لنا القولُ إنّ تلك الأدوات ليست محايدةً، وإنّ ما يصحّ على الآلات إجمالاً يصحّ من بابٍ أَوْلى على الأدوات الحربية. ومن هنا فإنّ إشكالية التقني/العسكري ينبغي أن تُنزلَ من مستوى التهويم الفلسفي، الذي يَفْصل المسائلَ عن المعيش الاجتماعي السياسي، إلى مستوى التدقيق المفهومي، حيث يَحْضر المجتمعُ بصراعاته المحتدمة، وحيث تغدو التقنيةُ العسكريةُ وسيلةً من الوسائل المعتمدة في ذلك الصراع. إنّ المعركة اليوم ليست ضدّ الأسلحة الذرية والبيولوجية والكيمياوية وما شاكلَها، وإنما ضدّ الإمبريالية التي تُشْهرُ أدواتِ الفتك تلك في وجه شعوبِ الأرض كافةً. لقد طوّرت الرأسماليةُ على الدوام الآلاتِ في علاقة بالصراع الطبقي، طلبًا للربح ومراكمةِ الثروات، والحيلولةِ دون اندلاع الثورات، أو إغراقِها في بحور من الدم متى حصلتْ. حتى إنّنا «نستطيع أن نَكْتب تاريخًا كاملاً للاختراعات التي استُحْدِثتْ... لحماية رأس المال.»[٤] وإذا كان كارل ماركس قد نَظَرَ إلى نضال العمّال باعتباره دافعًا يَجْعل الرأسماليةَ تطوِّر تقنياتِها، بما فيها التقنياتُ العسكرية، فبالإمكان القولُ أيضًا إنّ نضال الشعوب والأمم المضطهَدة من أجل الاستقلالِ وتقريرِ المصير قد أدّى إلى وضعٍ مشابه.

وعندما تغدو تلك التقنياتُ أو البعضُ منها مقترنةً بالاضطهاد، فإنّه يُمْكن تفهُّمُ ردّ فعل المضطهَدين إزاءها، والمتمثّلِ في تحطيمها. فعندما يلجأ المقاومون العراقيون اليومَ إلى تحطيم البنية التحتية للصناعة البترولية، بتفجير الأنابيب وتخريب المضخّات، فإنّ ردّ فعلهم يندرج ضمن نضالٍ وطنيّ يصمِّم فيه الشعبُ على قطع الطريق أمام الغزاة حتى لا يستفيدوا من الثروات التي جاؤوا أصلاً لنهبها. وبالتالي فَهُمْ يدركون أنّ تلك المنشآت ليست سببَ بلائهم، وأنّ الإمبريالية هي «أفعى أوجاعهم.»[٥]

لقد عوّلتْ قوى الهيمنة في العالم على ترسانتها العسكرية لضمان تفوُّقها وإخضاعها للشعوب والأمم المضطهَدة. وتبدو دولةٌ مثلُ الولايات المتحدة اليوم مزهوّةً بتقنيتها العسكرية، وتَنْظر إليها باعتبارها الكفيلةَ بحلّ مختلف المشكلات التي

---

١ ـ جورج پوليتزار، **أصول الفلسفة الماركسية**، ترجمه شعبان بركات (صيدا، بيروت: المكتبة العصرية، بدون تاريخ)، ص ٥٥.

٢ ـ محمود أمين العالم، «تأملات تمهيدية في المسألة التكنولوجية،» مجلة **الفلسفة والعصر**، العدد الثاني، القاهرة ٢٠٠٢، ص ١٤.

٣ ـ ٤ ـ ماركس، **رأس المال**، المجلد II (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨١)، ص ٦٠٥، ٦١٨.

٥ ـ العبارة لهاينه، أوردها ماركس في كتابه **رأس المال**، للإشارة إلى الرأسمالية.

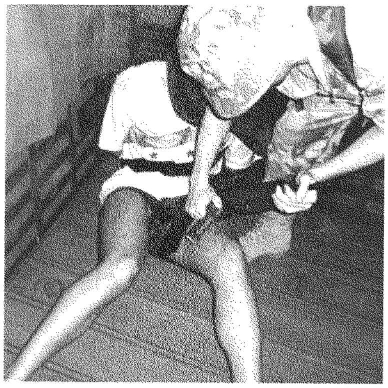

ما حدث في «أبو غريب» ليس غريبًا؛ فسجلّ الإمبرياليين الأميركيين والبريطانيين حافلٌ بالفظائع.

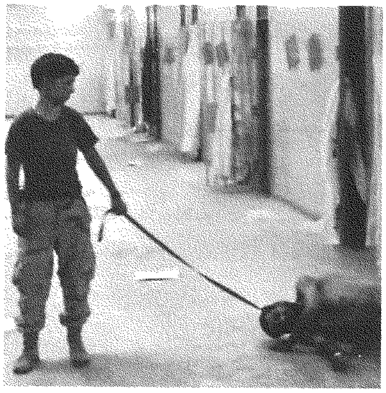

تعترضها، وتعتقد أنّها ـ بتطوير أشدّ الأسلحة فتكًا ـ ستَجْعل العالمَ يَرْكع تحت قدميها. ويرقى هذا التعويلُ على الأسلحة المتطورة، وعلى التكنولوجيا عامّةً، إلى مستوى «الديانة الصناعية،»[1] حيث تغدو الآلةُ وسيلةَ الخلاص. غير أنّ ذلك ليس إلا ضربًا من ضروب الوهم، لأنّ أصحابه يتغافلون عن حقيقةٍ مؤدّاها أنّ المحدِّد في الحرب ليس الأسلحة وإنما **الإنسان** نفسه. لذلك فإنّ الشعوب التي لا تمتلك أسلحةً متطورةً كثيرًا ما لجأتْ إلى إبداع أشكالِ نضالٍ قادتْها إلى الانتصار على عدوٍّ يَفُوقها عتادًا وعدّةً.

وتلك الديانة الصناعية هي التي تفسّر المعركةَ الضاريةَ التي تخوضها الإمبرياليةُ بغرض فرض الرقابة على الكثير من البلدان لكي لا تطوّرَ أسلحةً مشابهةً لتلك التي تمتلكها القوى العظمى في المجالات النووية والبيولوجية. وعلى هذا النحو يجري في وضح النهار احتكارُ التقنيات العسكرية المتطورة؛ فبينما تطوِّر تلك القوى أسلحةً ذاتَ طاقةٍ تدميريةٍ هائلة، فإنّها تَمْنع البلدانَ الأخرى من مجرّد التفكير في امتلاكها.[2] والمفارقة أنّ تلك القوى، في الوقت الذي تتحدث فيه عن خطر انتشار أسلحة الدمار الشامل، وتُلْزِمُ غيرَها بالامتثال لما تُسمّيه «القانون الدولي،» تَضْرب عرضَ الحائط بالمعاهدات الدولية الموقّعة في هذا المجال. فعلى سبيل المثال ألغت الولاياتُ المتحدةُ من جانبٍ واحدٍ اتفاقيةَ الصواريخ البالستية سنة ٢٠٠١ التي وَقّعَتْها سابقًا مع الاتحاد السوفياتي، حتى تصبح يدُها طليقةً في إنتاج صواريخ أشدّ فتكًا. كما تنصّلتْ من التوقيع على بروتوكول منع الأسلحة البيولوجية خلال المؤتمر الدولي المنعقد في صيف ٢٠٠١ لهذا الغرض.

القِيَم في صفِّ مَنْ؟

تقدّم لنا الحروبُ الإمبرياليةُ ضدّ الشعوب والأمم المضطهَدة، وآخرُها الحربُ الراهنة، الدليلَ الواضحَ على التوظيف السلبي للقيَم، حيث تَبْرز الإيتيقا خادمةً للعدوان. فقد حَرِصَ الإمبرياليون الأميركيون على إظهار أنفسهم بمظهر المُدافع الذي لا تلين له قناةٌ عن الحرية والعدالة، وحاولوا أن يرسّخوا في الأذهان أنّهم من أُنيط بعُهْدتِه فرضُ احترام القيم ضدّ الهمج والبرابرة بقوة السلاح. غير أنّ الجرائم الكثيرة التي يرتكبونها، ولا يُبْرز الإعلامُ إلاّ النّزرَ القليلَ منها، تَكْشف المسافةَ بين القول والممارسة.

واللّافت في فضيحة «أبو غريب» هو أنّ الأميركيين هُمْ مَنْ كشف عنها. ففي ٢٨ أفريل (نيسان) ٢٠٠٤ نَشَرَتْ مجلة **نيو يوركر** الصورَ المرعبةَ التي جابت العالَم بعد ذلك. وذكَرَتْ أنّها حَصلتْ على تقرير سرّيّ من ثلاث وخمسين صفحة يشير إلى الانتهاكات التي جَرَتْ في ذلك السجن، مثل الاغتصاب والتعذيب بالكهرباء وحرق الأجساد بسوائل فسفورية. وعلى الفور علّق المسؤولون الأميركيون قائلين إنّ تلك الحوادث معزولةٌ، وإنّ القضاء سيَنْظر في أمر مرتكبيها الذين سينالون جزاءهم. أما الجنرال مايرز فقد صَرّحَ بأنْ لا عِلْمَ له بالتقرير، وأنّ «هذا النوع من التقارير يُمْكن أن يكون ملفّقًا.» وبعد أيام قليلة بثّت قناة سي. بي. أس. الأميركية الصورَ الذي تُظْهر السجناءَ العراقيين وهم يتعرّضون لأبشع أنواع التنكيل على أيدي جلاديهم.

وبينما كانت الأنظارُ مشدودةً إلى ما حصل على أيدي الجنود الأميركيين، ظَهرت المفاجأةُ الثانية عندما نشرتْ جريدةُ **الدايلي ميرور** صورًا تُبرزُ معاناةَ سجناء عراقيين على أيدي ضبّاط

---

١ ـ ريجيس دوبريه، **محاضرات في علم الإعلام العامّ**، ترجمة فؤاد شاهين وجورجيت الحداد (بيروت: دار الطليعة، ط ١، ١٩٩٦)، ص ٤٨.

٢ ـ يلاحظ سمير أمين (مجلة **المستقبل العربي**، ماي ٢٠٠٤، ص ٥٦)، أنّ «الطبقة الحاكمة الأميركية تعلن بلا تردد أنّها لا تحتمل إعادةَ بناءِ قوةٍ اقتصادية وعسكرية قادرةٍ على خرق احتكار سيطرتها على الأرض،» وأنّها ستضطرّ إلى التصرّف «كدولة مارقة بامتياز، فتستبدل القانونَ الدولي بالحرب الدائمة، وتنزلق على منحدر فاشي.»

بريطانيين. ومثلَ نظرائهم الأميركيين صرّح المسؤولون البريطانيون أنّ الصور قد تكون مفبركةً ! فهل ما حدث في «أبو غريب» غريب؟

الإجابة هي قطعًا: لا! فسجلُّ الإمبرياليين الأمريكيين والبريطانيين، والمستعمِرين عامةً، حافلٌ بمثل هذه الفظائع. بل إنّ ما حدث يندرج ضمن توجُّه عامٍّ للعسكرية الأميركية، يقوم على إلحاق أكبر أذًى ممكنٍ بالخصم، وهو في واقع الحال المقاومةُ الوطنيةُ العراقية: بتدميرها معنويًا، وبثّ الخوف والهلع بين صفوفها، وإقناع كلّ مَنْ تحدّثه نفسُه بالانخراط فيها بأنّه سيكون عرضةً للقتل أو السجن حيث سيهان وتداس كرامتُه بأبشع الصور الممكنة. إنّ تعذيبَ ضحايا سجن «أبو غريب» مَثَّلَ جزءًا من الحملة العسكرية التي بدأها الجيشُ الأميركي في ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٣، وأطلق عليها اسمَ «المطرقة الحديدية،» وقادها الجنرال جيري بوكين ـ وهو أشدُّ الجنرالات الأميركيين فاشيةً، وصاحبُ السّمعة السيئة في مواجهة الثوريين في أميركا الجنوبية، وخاصّةً في كولومبيا والبيرو: فهو الذي أشْرف على عمليات التعذيب، واستَقْدَم للغرض ضباطًا إسرائيليين.

وأمام المدى الذي أخذتْه الفضيحةُ، تمّ نشرُ تقرير أنطونيو طاغوبا. وما يدعو للسّخرية هو تلك الاستنتاجات التي خلُص إليها: فقد فَسَّرَ تلك الفظاعاتِ باختلاف الثقافات، ومحدوديةِ التوجيه الذي يتلقّاه الجنودُ!

وإذا كنّا نَعْرض في هذا المقام الجانبَ الأخلاقيَّ في الحرب الدائرة حاليًا، فإنّ ما يَنْبغي تأكيدُه هو أنّ تلك الصور قد كَشَفَتْ عن ذلك الكمّ الهائل من الشرور والهمجية والجرم الذي تختزنه الإمبرياليةُ الأميركية ونظيرتُها الإنكليزية. أمّا ما رفعه الغزاةُ في بداية الحرب من شعارات أخلاقية، مثل «عدالة بدون حدود» و«حرية العراق،» فإنّه قد انتهى إلى الإفلاس ولم يعد يُقْنع أحدًا. وأمام تلك الصور، فإنّ بإمكاننا اليومَ القولَ إنّك إذا شئتَ أن تَعْرف حقيقةَ أخلاق الإمبرياليين، فما عليكَ إلاّ أن تَقْلبَ ما يقولونه إلى نقيضه!

ويحاول هؤلاء الآن محوَ تلك الصور من الذاكرة بكلّ قواهم. ولهذا الغَرَض، نَظّموا مسرحيةَ محاكمة الجنود المتورّطين في عمليات التعذيب. غير أنّ الأحكام الصادرة كانت مثيرةً للسخرية، حتى صَرَّحَ روبرت غولدمان، أستاذُ الحقوق بجامعة واشنطن، بنبرة تهكّمية قائلاً: «في أميركا يُمْكن أن تُواجِهَ أحكامًا أشدَّ قسوةً لأنهم عثروا على القليل من الماريجوانا لديْكَ.» وهكذا فإنّ الإمبريالية، التي تتغنّى بحقوق الإنسان وتَزْعم الدفاعَ عن أسمى القيم، لا تَفْعل في حقيقة الأمر غيرَ توظيف تلك الشعارات لصالحها، واستعمالِها كوسائل لخداع البشر. وفي حال واجهتِ المقاومةَ من قِبل مضطهَديها فإنّها ترمي بتلك الشعارات جانبًا، فتبدو على حقيقتها: قوةً فاشيةً منفلتةً من أيّ عقال.

وعندما يصل هؤلاء إلى هذا الدّرك من الانحطاط فإنّهم لا يتوانَوْنَ عن مطالبة الجميع بالخضوع لإرادتهم، فيتلاعبون بما هو حقوقي، مُستصْدرين قوانينَ جديدةً، ومقدّمين تأويلاتٍ غيرَ مسبوقةٍ لقوانين قديمة. والمهمّ بالنسبة إليهم هو فتحُ بوّابات العالم جميعها أمام جبروتهم؛ يقول شومسكي في توصيف ذلك: «إنّ القوة المهيمنة لا تكتفي بالإعلان عن سياستها الرسمية، بل إنّ عليها إن تؤسّسها كعُرْفٍ جديدٍ من أعراف القانون الدولي... ومن المعروف أنّ أحدًا لا يستطيع أن يؤسِّس أعرافًا جديدةً، ويُجْري تعديلاتٍ على القانون الدولي، غير هؤلاء الذين يشْهرون مسدّساتِهم.»[1]

ولا تُفتضح تلك الازدواجيةُ في تعاملِ هؤلاء مع ما هو قِيَميٌّ في أعين المضطهَدين فقط، وإنما أيضًا في أعين عدد متزايد من الجنود الأميركيين أنفسهم، الذين يَتْركون ساحةَ المعركة. ففي عالم الإمبريالية، «هذا العالم المقلوب واقعيًا رأسًا على عقب، يكون ما هو حقيقيٌّ لحظةً من لحظاتِ ما هو زائف.»[2] إنّه العالم الذي يَسْتثمر فيه الجلاّدُ جريمتَه وقد افتُضِحَتْ، فيؤقنِمُ ضحاياه، مؤكّدًا أنّه لو لم يكن ديموقراطيًا لَمَا نُشِرتْ تلك الصور! إنّها الحُجّةُ بالسّلب هذه المرة، والمهمّ هو أن لا يُفْلِتَ الرأيُ العامّ من تأثير الدّعاية التي تحوّل الحقيقةَ إلى زيف والزيفَ إلى حقيقة.

ولقد ركّز هؤلاء، بسبب إدراكهم لمركزية القيم في الحرب الراهنة، دعايتَهم في اتجاه التأكيد أنّهم ضامنُها الوحيد. بل إنّهم وَظّفوا حتى اللهَ لصالحهم: «فاللّهُ في صفّ أميركا.» غير أنّه، في معمعان المعارك، يتبدّى للعيان شيئًا فشيئًا أنّ الفضائل ليست في صفّهم، وأنّ القيمة الوحيدة التي يَنْشدونها هي الربحُ، حتى لو كان مغموسًا بدماءِ ضحاياهم.

واللافت أنّه في الوقت الذي يشير فيه الإمبرياليون إلى طائفيةِ وتعصّبِ الجماعات الأصولية الإسلامية، فإنّهم يُغْمضون العينَ عن الأصوليّتين اليهودية والمسيحية. بل إنّ خطابهم الإيديولوجي يُمْكن تصنيفُه، هو ذاتُه، ضمن الديماغوجيا المسيحية. والحقّ أنّنا عندما نلقي نظرةً خاطفةً على ما يحدث في عالمنا فإنّنا نَلْمح حربًا مستعرةً بين أصولياتٍ شرسةٍ، منفلتةٍ من عقالها، تقدّم كلُّ واحدةٍ منها نفسَها لطائفتها على أنّها من يَحْمي حماها ويذود عن مقدّساتها. إنّها البربرية في أعلى أشكالها، إذ يُختزل الناسُ في الأديان التي ينتمون إليها، وتتمّ محاربتُهم على أساس ذلك الانتماء: فيُقتل الناسُ في فلسطين والعراق وأفغانستان بمئات الآلاف بدم بارد، وتُفجَّر قطاراتُ الركاب في مدريد ولندن بدمٍ باردٍ أيضًا. إنّه القتلُ على الهوية، الذي هو سمةٌ فارقةٌ للبربرية.

إنّ المستوى الإيتيقي الذي نَطْرقه هنا يُحيل على جملة من المفاهيم. وقد أجادت الإمبرياليةُ خلطَ الأوراق على هذا الصعيد،

---

١ ـ نومْ شومسكي، «الحرب الوقائية أو ' الجريمة المطلقة '،» مجلة **المستقبل العربي**، العدد ٢٩٧، الشهر ١١، بيروت ٢٠٠٣ ، ص ٣٨.

٢ ـ جي ديبور، **مجتمع الفرجة**، ترجمة أحمد حسان (القاهرة: دار شرقيات، ط ١، ١٩٩٤)، ص ١٠ ـ ١١.

تفجيرات مدريد ولندن: إنه القتلُ على الهوية، الذي هو سمةٌ فارقةٌ للبربريّة!

فصنعتْ مخابرُها الإيديولوجيةُ ما شاءت من المفاهيم الجديدة، ولَوَتْ عنقَ مفاهيمَ قديمةٍ، لكي تُنْطقها بالدلالات التي تريدها. فعلى سبيل المثال سَوَّقَ الإمبرياليون حروبَهم تحت عنوان «محاربة الأنظمة الشموليّة.» وكثيرًا ما جرى استعمالُ هذا المفهوم للحطّ من شأن النظام السياسي البديل ممثّلاً في الاشتراكية، وتورّطَ الكثيرُ من المفكّرين في فخّ استعمال هذا المفهوم، والآن يُعلّق بعضُهم على ذلك بالقول: «على الرغم من أنّ المعاني التي تمّ إضفاؤها على كلمة ' الشمولية ' خلال فترة الحرب الباردة كانت وسائلَ دعائيةً مفيدةً، فإنّها بقيتْ أدواتٍ تحليليةً غيرَ ملائمةٍ كلياً، وأفضت في كثير من الأحيان إلى اعتمادِ أساليب تفتيشيةٍ بشعةٍ وآراء أخلاقيةٍ مدمِّرة. إنّ العديد من رفوف مكتباتنا، الملأى بالتحليلات التي تتناول النزعة الشمولية، لا تثير إلاّ الإحساسَ بالخجل ويُمْكن رميُها بعيدًا دون تردّد.»[1]

كما وُظّفتْ مفاهيمُ أخرى مثل «الاختلاف» و«الآخر،» فعُقدت الندوات وأُلّفت الكتبُ، وكان المقصدَ غيرَ المعلن دفنُ مفاهيم مثل: «التناقض،» و«الصراع،» و«الثورة.» وتبارى المثقفون التقليديون في الشرح والتحليل: فإذا «الاختلاف» يحتّم التعايشَ في «القرية الكونية» بعيدًا عن ضروب الصراع. وعوضًا عن الحديث عن التناقض بين الشعوب المضطهَدة من جانب، والإمبريالية من جانب آخر، يجري الحديثُ عن مجرّد «اختلاف في الثقافات» لتذويب تلك التناقضات واستئصالها من أذهان الناس. كما طاولَ الهجومُ مفهومَ التقدّم و«الهوية،» في محاولةٍ لتجريد المضطهَدين من أية قيمةٍ وأيّ حلمٍ يُمْكن أن يَجْمع بينهم.

وزَرَعت الإمبرياليةُ بذلك اليأسَ والقنوطَ لدى قطاع هامّ من الناس؛ فمَدافعُها الإيديولوجيةُ لا تتوقف عن دكّ الآذان والأبصار بموضوعاتٍ مثل «نهاية التاريخ» و«زوال عصر الثورات.» ونتيجةً لذلك انتشر بين عدد غير قليل من المفكرين اليأسُ والتشاؤمُ، ووجد البعضُ منهم العزاءَ والسلوى في التماهي مع الجماعات الدينية أو الجماعات الليبرالية، مُنْكرًا بجرّة قلمٍ أفكارًا ظلّ يردّدها عشراتِ السنين. وعلى هذا النحو شَمل الهجومُ كلَّ ما له صلة بالمقاومة والثورة، والهدف هو إشاعةُ تفكير ينعدم فيه أيُّ انتماء طبقي ووطني. والإمبرياليون على وعي بأنّ ذلك سيؤدّي، في حال نجاحه، إلى بروز كياناتٍ إنسانيةٍ مفرَغةٍ من أيّة قيم، أيْ أنّنا سنكون في آخر المطاف أمام أفراد منعزلين مشتّتين لا شيء يوحّد بينهم. ولهذه الاعتبارات كان العملُ المنهجُ والمنسّق لتدمير الهويّات الطبقية والوطنية بشتّى السبل. والمفارقة أنّ الإمبريالية، وهي تقوم بهذا الصنيع، تستدعي هويّاتٍ مندثرةً، أو تَصْنع طوائفَ مغلقةً، وتشكيلاتٍ اجتماعيةً زائفة، لتحطيم الهويّات القائمة. وفي الظاهر يبدو الأمر سليمًا أخلاقيّاً؛ فالشعار المرفوع هو الدفاع عن حق الأقلّيات في الوجود، وتقرير المصير. أما واقعيّاً فإنّ البوّابة «الأخلاقية» مجردُ مَدْخلٍ قبل أن تتكلم المَدافعُ، فتقوّضَ بلدانًا وتفكّكَها بهدفِ السيّطرة عليها.

حربٌ بذراعيْن!

إنّ ما ذكرناه يَكْشف لنا ذلك الارتباطَ الوثيقَ بين الإيتيقا والتقنية العسكرية المستعملتَيْن في «الحرب على الإرهاب.» إنّها حرب بذراعين: ذراع إيديولوجية رأسُ حربتِها الإيتيقا الإمبريالية، وذراعٌ ماديةٌ رأسُ الرمح فيها آخرُ ما توصّلتْ إليه التقنيةُ من وسائل الفتك والتدمير. والسؤال هو: أيُّ الذراعين يجري تحريكُها أوّلاً؟ مَنْ يتكلم أولاً: الألسنُ، أم المَدافع؟ إنّ الإمبرياليين ليسوا أغبياء لكي يبدأوا معاركهم بقرقعة الأسلحة، ولذلك يمهّدون أرضَ المعركة إيديولوجيّاً أوّلاً، فيَزْرعون الساحةَ بمعسول الكلام عمّا تقتضيه «القيمُ الأخلاقية،» وما تستلزمه «القوانينُ والأعرافُ الدولية،» ويرسّخون في الأذهان الصورةَ الكريهةَ للخصم الذي يتوجّب الإجهازُ عليه قبل فوات الأوان. وبعد اكتمال المهمة تتكلم أدواتُ الدمار. غير أنّ ذلك لا يعني أنّ التقنية لا تَحْضر في الفصل الأول من هذه الحرب: فأدوات الاتّصال، من

١ - هارت / نيغري، **الإمبراطورية**، تعريب فاضل جتكر، مراجعة رضوان السيد (الرياض: مكتبة العبيكان، ط ١، ٢٠٠٢)، ص ٥٦، هامش رقم ١.

تلفزيون وأنترنت ومطابع الصحف والكتب والمنشورات الدعائية، توضَعُ كلُّها في الخدمة. وعندما يبدأ الفصلُ الثاني وتُوكَلُ المهمةُ رئيسيّاً لأدوات الفتك، فإنّ أدوات الحرب الإيديولوجية لا تتوقّف عن العمل، وإنما قد تُواصلُ ذلك بحميّةٍ أكبر.

واليوم يَحْكم الإمبرياليّون على ضحاياهم بالذهاب إلى حافّة الهاوية، ويَسدُّون عليهم كلَّ المنافذ، فلا يجدون من سلاحٍ غيرَ تفجير أنفسهم علَّهم يُلْحقون بهم بعضَ الأذى. إنّ الإمبرياليين يَدْفعون بالجميع إلى طلب الانتحار، بغضّ النظر عن العناوين التي يتمّ تحتها ذلك الانتحار.

وإذا كان هؤلاء يَسْطون على ما هو إيتيقي ويوظّفونه لصالحهم، فإنّ المطلوب هو تأميمُ الإيتيقا. فالقيم ليست للخاصّة وإنّما للجميع، والكمالُ والسعادةُ والحريةُ والعدالةُ كلُّها أمورٌ ممكنةٌ للبشريّة قاطبةً.

ينبغي الانتقال، إذن، من أرستقراطية الإيتيقا إلى مشاعيّتها، من ملكيّتها المخصوصة إلى ملكيّتها المعمَّمة. وإذا كان المجتمعُ الرأسمالي يضع قيودًا صارمةً أمام كلّ إمكانية لتحقيق ذلك، فإنّ الإطاحة به تغدو مهمّةً ملحّةً كي تبلغَ البشريةُ اللحظةَ التي ينبجس فيها تفتُّحُها الإيتيقي. وهو ما يعني ضرورةَ الربط بين الإيتيقا والمجتمع الذي يُمثّل حاضنَتها.

وبهذا، فإنّ فهمَنا للإيتيقي ينبغي أن يكون فهمًا عيانيّاً، أيْ ضمن وضعٍ اجتماعيٍّ تاريخيٍّ مخصوص. وإلاّ فإنّ أيّ حديثٍ عنها سوف يكون حديثًا عابرًا للمكان والزمان، لا تُسْنده أيّةُ واقعةٍ ماديةٍ حيّة.

الخاتمة

لا سبيل أمام الأمّة العربية لتحطيم قيودها غير إعلان الحرب على الحرب الإمبريالية، ومواجهةِ إيتيقا الغزو بـ «إيتيقا المقاومة والثورة.» وهذه الأخيرة إيتيقا متمركزةٌ حول غايات أخلاقية كبرى، مثل الكرامة، والشجاعة، والعدل، والحرية، والدفاع عن الأرض والوطن. ومثل هذه الايتيقا لا يُمْكن إلاّ أن تكون في قطيعةٍ تامةٍ مع ذلك الانحرافِ السائدِ الآن، والمتمثِّلِ إمّا في الترويج للقيم الليبرالية والليبرالية الجديدة، أو استحضارِ قيمٍ ولّى زمانُها تقوم على التكفير وتصويرِ الحرب الراهنة على أنّها حربٌ بين المؤمنين والكافرين!

إنّ ما يتوجّب القيامُ به هو إلحاقُ الهزيمة بالإمبرياليين لا عسكريّاً فقط، وإنما كذلك سياسيّاً وإيديولوجيّاً وأخلاقيّاً. وقد يكون العملُ على هذه الجبهة الأخيرة أكثرَ راهنيةً من أيّ وقت مضى. فالمقاومة على هذا الصعيد تعاني الوهنَ، والسائدُ هو ردود الفعل الماضويّة، حيث الارتدادُ إلى الماضي والغَرْفُ من مفاهيمه ومصطلحاتِه وفتاويه وقيمه، تمامًا مثلما يَحْصل في المجال العسكري، حيث يغدو الصديقُ عدوّاً لا لشيء إلاّ لأنّه يختلف عنّا في المعتقد، فيصبح هدفًا مشروعًا للقتل: فتُؤخذُ الرهائنُ بشكل أعمى، وتُقطع الرؤوسُ في مَشاهدَ بربريّةٍ لا يُضارعها في همجيّتها غيرُ همجيّة الإمبرياليين أنفسهم. وعلى المستوى الاستراتيجي فإنّ ردود الأفعال تلك محكومٌ عليها بالفشل. لذلك فإنّ المطلوب هو مقاومة الإمبريالية بما هو أشدُّ تطوّرًا من أفكارها ونُظُمها وقيمها... لا العكس.

تونس

ملفّات الأعداد القادمة من الآداب:

- **المثقفون العرب والمقاومة العراقية: هل ينبغي دعمُها؟ وكيف؟**
- **الشباب العربي والمشاركة السياسية (III): مصر.**
- **الشباب العربي والمشاركة السياسية (IV): تونس.**
- **أدب الأطفال والناشئة في الوطن العربي.**
- **ما بعد الكولونيالية: أبحاث ودراسات.**

ادعم الآداب، اشتراكًا وتبرُّعًا، كي يبقى صوتك القوميُّ اليساريُّ الحديث عاليًا!